قصة

وجهان لعملة واحدة

عبد الكريم غلاب

حضرت في وقتك... تراني أعددت، لك ولي، برنامجا حافلا للمراجعة والحفظ، الامتحانات أخذت تنشر ظلالها. والمقرر طويل. هؤلاء الأساتذة لا يعرفون حدا لإملاءاتهم، حتى المواد التي لا يسعفهم الوقت بإملائها يطلبون مراجعتها في كتبهم. كذلك هم أساتذة الحقوق، يضعون في برامجهم كل قوانين الدنيا. العلم عندهم هو تكديس المعلومات.

- ارحمني هذا المساء من المسؤولية الجنائية والإخلال باتفاقية العمل. تعال هات أذنيك وعاطفتك وقلبك أسمعك هذه القصيدة الجميلة... حتى مطلع الفجر وأنا أراود مقاطعها ومعانيها ومضامينها.. لن يسمعها أحد غيرك. وهي... إن كان من حظي أن تمنحني لحظة، أكون بها سعيدا، وشعري يتحدث لها وعنها.

ضاق صبر محمود، وهو يستمع للمرة الألف إلى قصائد زيدان حتى إذا انتهى من قصيدته تلك استمر:

- قل لي يا محمود ما رأيك؟

- رأيي أنها لن تنفعك في الجواب على أسئلة الامتحان. سيضحك الأستاذ وهو يضع على ورقتك صفرا فوقها وآخر تحتها وعن يمينها وشمالها.. تريد أن تعرف رأيي.

- ...(مقاطعا) قبل أن تنشد القصيدة حدثني عن اسمها إن كنت تعرفه، تلك الفاتنة التي تدخل المدرج آخر الدخلات ليستغرق في جمالها كل الطلبة والطالبات، في خطواتها المترنحة في فستانها القصير وشعرها الطويل ونظراتها المترفعة بعينيها المشرقتين، ومقدمة الابتسامة البريئة تخيم على شفتيها المتوثبتين.

- يا زيدان قصيدة أخرى، نثرية هذه المرة. أرجوك... أرجوك أن تعفيني من شعرك، ومن غزلك في تلك التي لا تعرف حتى اسمها.

- إذا لم أعرف اسمها اليوم فسأعرفه غدا. شعري سيصل إليها. كم يكن سعيدات الفتيات وهن يعرفن أن شاعرا يتغزل فيهن.

وضحك محمود حتى كاد يستلقي، ثبت عينيه في وجه زيدان، وقد تجلت في وجهه لمحة غاضبة:

- اسمح لي يا زيدان أن أعيد ما لعلي أسمعتك إياه: أعرفك منذ المدرسة الابتدائية، العالم كله تغير، ثم تغير، الحضارة تضاعف نفسها كل بضع سنوات، وأنت كما أنت... دروسك آخر ما تفكر فيه.

- (مقاطعا في تحد) ومع ذلك أنجح. اسمع: العالم يتغير نحوي، الفن قبل العلم (وهو يضحك في شبه اعتزاز) وقصيدتي في سحر التي لا أعرف اسمها أجمل من نظرية المسؤولية الجنائية. قلبي حافل بها. وسيمنحك عقلي بعض وقته لنراجع معا القانون التجاري والقانون الدولي.

الآن محمود من حدة انفعاله. يعتز بصداقة زيدان، ولو أرهقته شطحاته.

- قد تكون آخر من ينجح؟

ARCHIVE

- ولكني سأفوز بأجمل قصيدة تحيي أروع وأجمل من عرفتهن كلية الحقوق من الجميلات الفاتنات.

- (مداعبا في لهجة جادة): لم أفهم حتى الآن: لم لم تلتحق بكلية الآداب بدلا من الحقوق؟

- تريد أن تعرف، لم أكن لأجد في كلية الآداب ملكا جميلا مثل التي وجدته في كلية الحقوق... (عاد إلى لهجة جادة).

- أتظن أن كلية الآداب تنتج الشعراء؟ دون أن أبتعد عن الحقيقة: لم تبدع كلية الآداب - منذ كانت - شاعرا يقول مثل القصيدة التي تفتقت عنها مواهبي...

- الله... الله... يا زيدان شاعر الزمان ومنشد العصر والأوان...

تغاضى زيدان عن سخرية محمود بقلب لا يحمل حبة ضغينة. عاشا معا، صديقين فترة طويلة من فتوتهما وشبابهما جمعتهما المدرسة منذ ابتدائيتها حتى الجامعة. أحدهما يكمل الآخر، ذكاء زيدان وسذاجته وبياض قلبه، يتفق مع ود محمود وقوة ذاكرته وجديته في دروسه. قال له زيدان مرة في قليل من الجد وكثير من الهزل:

- يا محمود لولاك لسقطت منذ السنة الأولى الابتدائي...

- لا يا زيدان تريد أن تعرف ضعفك؟...

- ليس بي ضعف، ولكني أحب الفاتنات، وأترك كتاب القانون لأحلم بالخدود الأسيلة والعيون الناعسة والقدود الفارعة، والشعر - آه يا محمود- والشعر الكث الغزير السبط الأسود، البراق في سواده... والشفتين اللمياوين والصدر الناهد و...

- يكفي... يكفي يا زيدان. اترك بعض ذلك للقصيدة المقبلة. (مداعبا في سخرية) إن قبلت أن تمنحك بعض وقتها لتسمع لإنشائك.

محمود يرهن نفسه في الغرفة، وهم الامتحان يكبس على عقله وقلبه... وكان زيدان يختار من الروايات أجملها وأجودها تعبيرا عن المشاهد الغرامية. وحينما يلتقيان في المساء يجد زيدان محمودا رابطا جسمه إلى كرسيه بحزامه الجلدي، خوفا من أن تتوق نفسه إلى مغادرة الكتاب. ويضحك زيدان ملء فيه، وهو يستمع إلى تحذير محمود.

- ...إلا الشعر. ارحم شعرك، وامنحه إجازة تنتهي بإعلان نتائج الامتحان. وامنحني إجازة من متعة الاستماع إلى شعرك.

- طوعا لأوامرك سأرغم نفسي على مراجعة دروس القانون حتى أضمن لنفسي هذه السنة إجازة في الحقوق.

***

تريد كلمة الحق آخويا محمود (وخفض زيدان صوته حتى لا تكاد تسمعه أذنا صديقه) هذه الشهادة (وحمل ورقة إجازة الكلية بين يديه جلد بها "أكوال") اعتبره استهتارا جريئا. فتح عينيه على أبعادهما في وجه صديقه. تركزت كل أحاسيسه على باب الغرفة تحسبا أن تسمع أمه هذا الذي اعتبره فجورا. كانت أم محمود تعد لهما الشاي، وقد أعدت حلوة "الغريبة" و"كعب الغزال" احتفاء بنجاح ابنها وصديقه، تعتبره كابنها لمتانة صداقته مع محمود.

- لا تردد هذه الكلمة مرة أخرى. لو سمعتك أمي... (ووضع يديه على رأسه كما لو توقع كارثة).

شكر زيدان أم محمود وهي تضع بينهما صينية الشاي والحلوى.

- هذا يوم كنت أحلم به منذ سنين، ستصبحان أنت ومحمود أستاذين معتبرين في المدينة، ينحني لكما الناس احتراما. آه لو لم يكن صوتي مبحوحا لأطلقت زغرودة.

- وضحك زيدان من أعماقه (وحده كان يعطي مفهوما لضحكته) قام من مكانه وقبل يد أم محمود شاكرا على احتفائها بنجاحهما. عاد إلى محمود بعد أن تركتهما الأم ليحتفلا بنجاحهما مع كأس الشاي و"كعب الغزال".

أؤكد لك يا محمود: هذه الشهادة جلد بها أكوال... أضاف (وسط انفعال ودهشة محمود)

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

عدد الذين نجحوا ستمائة والذين سقطوا ستمائة، وسينجحون مع مئات آخرين... ما هي الحقوق التي سيدافع عنها هذا الجيش العرمرم من السابقين والحاليين واللاحقين...؟ ألا تعرف أن كل هؤلاء يبحثون عن الحق فلا يجدون. بعضهم يقول: رحمه الله ولا إمكانية لبعثه.. وبعضهم يقول: لا يوجد شيء اسمه الحق، والحقوق... يتداوله المغلفون كعملة زائفة.. هو من نصيب الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وما أقلهم. فستكون الجنة فارغة... لأن روادها أصبحوا كالكبريت الأحمر..

استطاع زيدان أن ينتزع ابتسامات من محمود.

- زيدان (حاول محمود أن يسأله بفم محشو بالحلوى) يبدو أنك لم تعد تؤمن بشيء...؟

- من أنبأك؟ أومن بالواقع، لا بالعبث.. (أضاف والكلمات تخرج من فمه منفعلة مضطربة) أخشى ألا تصدقني.. لو كنت وزيرا للتربية والتعليم العالي ومحاربة الأمية.. لـ.. (توقفت الكلمات في فمه)

- لـ... ماذا؟

- لأقفلت كليات الحقوق في جميع الجامعات، وفتحت بدلها كليات لرفع الأمية ... سأحدث بذلك ثورة في البلاد...

ضحك محمود بملء فيه وهو يحاوره:

- أحمد الله أني تخرجت... وإلا لكنت وضعتني يا وزير الأمية بين طلابك.

- اطمئن فلن أكون أستاذا للأميين ولا لغير الأميين (في معابثة). أشكر لك أنك تابعتني بحرصك الشديد حتى خرجت من الأمية وحصلت على إجازة في الحقوق...

وستجلد بها "أكوال" (ضحكا معا) ومحمود يعود بصاحبه إلى سؤال جدي: قل لي يا زيدان، بجد، تفكر لبناء مستقبلك؟

- مستقبلي...؟ هل أحد منا يمكن أن يصنع مستقبله؟ المستقبل في "كراع الغراب"

- يكفي هزلا... تعال لنتحدث بقليل من الواقعية، ونبحث، ونضع مخططا للمستقبل.

- ألم يكفك الماضي الذي عشناه معا؟ تريد أن نربط مستقبلنا معا...؟ تعرف أني لست عرافا. لا مستقبل في هذه البلاد لغير العابثين. وإذا كنت لا آسف على شيء، وأنت تتحمل بعض المسؤولية في ذلك، أني لم أكن من العابثين. لو كنت كذلك لجاء المستقبل يقبل يدي وقدمي. أما الآن وفي غمرة الفشل الذي تعرفه، فأريد أن أبدأ الخطوة الأولى في المستقبل بـ.. (توقف)

- بـ... ماذا...؟

- لا أفصح عن مخططي إلى أن تحدثني عن مستقبلك... أنت دائما تخطط وتبني. مهندس أنت؟. كل حياتك مخطط لها. لعلك تعرف أنك مهندس حياتي. لولاك لما سكنت هذه "الحياة" التي أفضت بي إلى الكلية... إلى الإجازة.. إلى ... ما بعد "إلى" لن تهندسه أنت... ولو خططت وحسبت وضربت أخماسا في أسداس... ضحك محمود ساخرا.. تمالك نفسه وهو يواجه زيدان بتحد صارم:

- لم تستعص علي صبيا وفتى وشابا، فهندست حياتك باعترافك، أتستعصي علي بعد أن أصبحت رجلا؟ لعل ثقتك في نفسك أصبحت أكثر مما أحتمل قيادتها...؟

- قد يكون. هناك قضايا لا تحتمل إلا المعنى بها...

- قضايا تهم مستقبلك، وأنا لا أستطيع أن أخطط لها؟ (ضحك ضحكة مدوية..) ما هي الطريق التي سلكت ولم أكن أنا مخططك لها؟ ازعم أنك عاجز.. ولكني أزعم أنك كسول. فكرك يتحرك بسرعة الطائرة، وجسمك يتحرك بسرعة السلحفاة..

ونظر إليه زيدان نظرة عاتبة في ود وهو يقول بصوت متهدج:

- لنؤجل الحديث فيما كنت أنوي مفاجأتك به، وأخبرني عن مخططك و"الإجازة" بين يديك، بعد أن نؤطرها بإطار ذهبي، وتبخرها خالتي (ينادي أم محمود "خالتي") بالعود القماري وسرغينة وتقرأ عليها آية الكرسي.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

- أستخر من خالتك يا سليط اللسان... هذا حديث يصلها حالا.

- لا... لا.. أجورك. إذا فهمت من حديثي أنه يحمل سخرية فهو من الإجازة لا من البخور وقراءة آية الكرسي... تجيب على سؤالي: ماذا تنوي أن تصنع بإجازتك... ولا تنس أنها بدرجة جيد؟

فكر محمود طويلا وكأنما فاجأه زيدان بسؤال لم يطرق فكره. كثير من السبل كانت مفتحة أمامه.

- مسؤوليات مكتوبة على جبين من يدثرهم الحظ بردائه. (تخلص من حديثه الجدي معابثا زيدان): وأنت حظك كما تعرف. اعترضه زيدان: تريد أن تقول "حظ عاثر" ولعلك تريد أن تضيف أني أنقل عثرات حظي إلى حظك.

أؤكد لك يا عزيزي أنه ليس هناك حظ في الدنيا. الحظ وهم يلعب بعقول الكسالى. رؤساء الحكومات أو الوزراء يخططون منذ المدرسة الابتدائية، طموحهم يمهد لهم الطريق. ثم يسعون بكل الوسائل – أؤكد بكل الوسائل – حلالها وحرامها، ليصلوا إلى الهدف. يصل بعضهم فيقضي حياته كلها وزيرا أو منتظرا الوزارة ويسقط بعضهم في الطريق لأنهم كانوا أقل حيلة وأضعف مكرا.

- تلقنني درسا في طريقة الوصول. اطمئن فلست أنت ولا أنا مؤلهين "قلة النفس" لا تنقصنا.

- ضحك زيدان وهو يضيف: (أشار بيده إشارة فهم مضمونها محمود فابتسم).

- لماذا يا زيدان تتهرب. لا تريد أن تواجه الواقع. ماذا خططت لمستقبلك وفي يدك إجازة الحقوق.

قلت لك أنت المهندس والمخطط وأنا... أقول لك الحق: لا أومن بالمستقبل. أومن بالحاضر – وبكثير من الصعوبة... من يستطيع أن يمنحني حاضرا أدعو له.

- دعواتك غير مقبولة أتعرف لماذا؟ اسأل أمي "خالتك" فستجيبك: لأنك لا تصلي.

- هي تصلي... وأنت تصلي... هل وصلت: (أضاف ساخرا) حتى رئيس الحكومة، في رأيي وأنا مؤمن لا يصلي. إن الصلاة ممارسة شخصية يجازي عنها الله في الآخرة. أما في الدنيا فالمترفون والمنعمون مالا ونفوذا – وأضيف علميا وتقنيا – كلهم لا يصلون، معظمهم لم يسمعوا بممارسة اسمها الصلاة. وملايين الذين لا يخرجون من المساجد يبيتون على الطوى، إلا من صدقة جارية.

- وتصبح الآن مفتيا في قضايا الدين...؟ قال محمود ساخرا، يكفيك من دنياك مشاكلها.. فكر قليلا في المستقبل...

- وماذا يجدي التفكير...؟ لعلك منذ كنت في المدرسة وأنت تفكر. أوصلت إلى حل، وقد اقترب عمرك من ربع قرن؟ دعني يا محمود أعود إلى الجدية الواقعية لأجعلك تجيب على سؤال أتراك تلح عليه: ماذا سنعمل منذ اليوم – وقد شربنا الشاي وأكلنا الحلوى؟ لعلك ستطوف في الشوارع تخبر الشعب أنك تحمل إجازة في القانون.

- يكفي من العبث يا زيدان. لعلك ستبقى أنت زيدان، ولعل والدك سماك زيدان لأنه يعرف أنك ستكون "قيمة زائدة عن إنسان العصر"... وحتى لا أسايرك من متاهاتك أخبرك بأن رأيي استقر، بعد تفكير طويل، أؤكد لك أن النوم لم يزر عيني ليلة أمس وفكري يتجول.

قاطعه زيدان ضاحكا:

- في دروب وزقاقات المدينة القديمة؟

- دعني أكمل حديثي: استقر رأيي على أن أتقدم إلى المعهد القضائي لأتخرج قاضيا...

- نعم الرأي يؤكد أن فكرك طوف كثيرا ووقف عند باب المعهد القضائي. وظيفة مضمونة ذات أبهة ومكانة ومال وسيادة، وحكم على أموال الناس وذمتهم، و...رقابهم... الإعدام أقرب الأحكام إلى فم بعض القضاة. والذين تستبد بهم الرأفة والرحمة والشفقة، فالمؤبد حتى ضاقت رحاب السجون بالمؤبدين... أرجوك.. أرجوك يا محمود إذا قدمت بين يديك فاحكم بغير الإعدام والمؤبد. فأنا ما أزال

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

في حاجة إلى عمري... العمر لا يباع ولا يوجد في سوق النخاسة. أقسم بكل ما تذكره في صلاتك: أني ما زلت في حاجة إلى عمري. كل عمري السابق مر في المدرسة والجامعة. الآن سأبدأ حياتي. وما أريد أن تنتهي على يد صديق العمر بالإعدام أو المؤبد. السجن... المقصلة... الكلمتان اللتان يحفظهما عن ظهر قلب كثير من القضاة...

بهت محمود... الرجل ينطق بالحكمة. تراني من الذين يحفظون الكلمتين كأسهل حكم يصدر عن ضميري وأنا على كرسي القضاء؟

قاطع زيدان أفكار محمود المنفعلة وهو يضيف:

- السجن أسخف عقاب عرفه الإنسان منذ عهد يوسف. أسخف جزاء على جريمة سرقة دجاجة تهين حريته وحياته بالسجن، وهو لم يسرق إلى لحاجة، إلا لظلم المجتمع ومسؤولية هذا الظلم تقع على السارق والمسروق والقاضي والسجان....و ... عبقرية المفكرين والقانونيين والمصلحين توقفت عند باب السجن. قصور في العقلية كنت أراه في وجه أستاذ القانون الجنائي. يتحدث عن الجريمة كقدر مكتوب على جبين "أشقياء" المجتمع والسجن عقابها.

أبلس محمود فاغرا فاه في دوامة بين ما كان يفكر فيه، وبسذاجة، عن القضاء وبين منطق زيدان، ولسانه يتدفق بالكلمات كما لو كان يملي عن حفظ. وأخيرا نطق:

- فكرت طويلا وقررت أن أتقدم لمباراة معهد القضاء. تعرفني حينما أتخذ قرارا...؟

فتح زيدان عينيه في وجه محمود في تحد صارم وبكلمات محظوظة وصارمة:

- اسمع يا محمود، تعرفني حينما أتخذ قرارا لا رجعة فيه قررت... قررت... قررت أن أتزوج... أتزوج...

اختفت الكلمات من فمه. لم تنطفئ حدة عينيه ونظراته المتوثبة... وضحك محمود ضحكته المدوية حتى خشي أن تنزعج طامو، أم محمود، وهي في عملها بالمطبخ. وعاد بحركات وجهه إلى طبيعتها. ركز عينيه في وجه زيدان:

- تتحدث بجد؟ كنت تتحدث عن السجن والسجون، ثم بنقلة سريعة أخذت تهتف بالزواج. أنت جاد فيما تفكر. تراها تلك التي تسكن ديوان شعرك. ليس في يدك غير ورقة من الكلية لن تقبلها أية فتاة كصداق. ظننتك ستتحدث عن المستقبل القريب، عملك الذي تكسب منه قوت يومك. الزواج نشاز في المستقبل القريب لشاب ليس بيده غير ورقة قد تتيح له الانضمام إلى تظاهرات الدكاترة المعطلين أمام البرلمان. وضعت عينيك على أرملة غنية تؤنس وحدتها، تؤنس فقرك بنفقاتها المترفة...؟

يستمع إلى تحليلات محمود الساخرة في صبر وأناة. ألف ألا يحتد من سخريته، حتى إذا أخذ نفسه ليعيد ترتيب أفكاره قال زيدان مستفزا في هدوء:

- ظننتك ستسألني عن صلة القضاء والسجون بالزواج، أنت اخترت أوليهما وأنا اخترت الثالث.

(أضاف ساخرا): سأحتاج إليك لتوافق على عقد زواجي، ولأدخل بذلك سجنا أبديا أو موقوتا. لم تدرك بعد العلاقة بين السجن والزواج...؟

وقف بحركته السريعة، وهو يسحب من جيبه دخينة متهاوية:

- لا أوقد دخينتي في غرفتك. خالتي تكفر بي وتستعيد بالله من رائحتها.

حاول محمود - في وحدته - أن يستعين بكتاب يخرجه من دوامة رمي بفكره فيها، وهو يقفز في حديثه من فكرة لأخرى.

- مغرور زيدان وهو يفكر في الزواج. عاش حياة الرهبان، وهو يتعشق الجميلات، يعشن في ذوقه المرهف يظن أنه يبني لهن عشا من خلود...! في قصائده.

- تلك كلمته كل جميلة في قصيدة، يقرأها - وحيدا في غرفته - يشعر بالسعادة وهو ينشدها باكيا متضرعا. أذكر دعته الحارة وهو يعيد بجمالها - كان يردد -.

- أنشد قصيدتي فيها قبل أن أنام. يستريح كياني. سمعت أجمل شعر قيل في امرأة. استمع إلى

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

دقات قلبها وعينها مركزة في شفتي... أنام وقد أبلغت الرسالة.

يحكي لي قصة الراهب الذي عشق الراهبة الجميلة أحبته... كان يقف دون حبهما ميثاق الكنيسة...

- لم لا تصارحها بحبك أو تغني لها قصيدتك... دون دموع...؟

- ما زلت غريبا عنك يا محمود. كم أنا سعيد. ميثاق ليس ميثاق الكنيسة على كل حال.

- لم لم تحتفظ بزيدان ليتناول معنا طعام الغداء؟ حسبته ما يزال يؤنسك بأحاديثه.

قالت طامو أم محمود. لم يجب كان في عمق الدوامة. وزيدان يفكر في الزواج، انتظره يوما يومين. بحث عنه في منزله:

- كعادته يا بني، يغيب دون أن أعرف لعله سافر إلى أكادير عند أخته، قالت أمه الوحيدة في منزل ينطق بالوحشة والبؤس...

أسبوعان وسمع طرقا حادا بالباب

- افتح الباب يا محمود. لعله زيدان هتفت الأم طامو. كانت تنتظره، يوحشها غيابه.

- هو كابني يا محمود، شاب أصيل في منزلة ابني، لا تضيع صداقته.

ترك كتابه مفتوحا. أسرع ليفتح الباب في وجه ضجة عارمة من فرحة اللقاء:

- أعرف أنك انتظرتني. سألت أمي عني ظننتني تهت في المجهول... (صامتا) ظننتني انتقلت إلى رحمة الله...؟ لا تخش شيئا. لي موعد مع الحياة، يتجدد، شرط ألا أخونها، ولا تخونني. أقول لك الحق الحياة جميلة جعلتني أحبها.

- وتنظم فيها قصيدة مثل قصيدة الهيفاء.

- محمود إلا "الهيفاء" لا تسخر من قصيدتي فيها... هي زاد عمري... ولكن الحياة جميلة، أعجب من الذين يرمون بها في الجحيم، في انفجار عاصف.

- مصمم أنت أن تعيش.

- إلى أن تغدر الحياة بحبي... مصمم ألا أغدر بها لأنها كريمة معك ومعي. هل أكرم وأجمل من جلستنا هذه نتحدث في كل شيء.

- وأول شيء: أين طوحت بك هذه الحياة أسبوعين كاملين.

- لا.. إلا ساعتين (قالها ضاحكا وهو يتطلع إلى ساعته في معصمه). أضاف: أو ظننتني مت. لا ما يزال لدي عمل لم أنته منه بعد...

- احك: أين طوحت بك؟ عند أختك في أكادير...

- لا... تعرف أني أحب أختي، لكني لا أفرض نفسي على زوجها. مسكينة: منشغلة بالأولاد وزوج طيب، ولكنه لا يؤمن بتحديد النسل: قل لي مرة إنه يجد السعادة - كل السعادة - مع الثمانية من أبنائه وبناته، قلت في سري: أما التي أنجبتهم فحظها أنها تمنح السعادة للآخرين...

بدأ محمود يضيق ذرعا بما اعتبره حديثا جانبيا. لم تكن عند أختك. فهمنا. ولكن أين كنت؟

- مالك مستعجلا -هامسا حتى لا تسمعه أم محمود) أولدتك خالتي من سبعة أشهر...؟ سأسألها (وضحك معابثا).

- رحلة أسبوعين تريد أن تعرف عنها كل شيء في دقيقتين لن تكفيك أسبوعان لتعرف مسار رحلتي...

- فهمت الخلاصة من ابتهاجك بالحياة. يبدو لي أنك حققت نجاحا؟

- مستعجل أنت ولن أستجيب لاستعجالك. ولكنك تعرف أني ما فشلت في حياتي قط. حتى الورقة التي تجلد بها "أكوال" أحرزت عليها.

- والدتي كانت مشغولة البال لغيابك.

- أمي، أعظم أم في الدنيا. أمي ألفت غيابي... مسكينة، لم تزد على: أوحشتني يا زيدان. ما أخبار أختك...؟ قبلت يديها وكذبت كذبة بيضاء: الزاهية تسلم عليك، أولادها جميعهم بخير اطمئني: زوجها متعلق بأولاده...

فرحت لكذبتي. لا شك أنها كذبة حلال لأنها

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أدخلت السرور على قلب امرأة عرفت الترمل، وهي بعد شابة...

شعر محمود أنه كلما حاول أن يقترب من حقيقة غيابه باتعد، كأنه متشوق إلى الحديث في كل شيء.

- قال لنفسه: دع لسانه حرا يتحدث في كل ما يريد هو زيدان... لا أحد يجاريه في تداعي أفكاره. منفعل بما حققه من نجاح. لعله جلس في مقهى ونظم قصيدة جديدة أم كتب قصة. منفعل بما سيحاول كتابة القصص. ملأت أحاسيسه بهوس الحب. وحينما سيكتب عنها قصيدة أو قصة لا تسع الدنيا سعادته. تأكد أن والدتي خرجت لتتسوق فأشعل دخينة.

- تعرف أنها تضيق برائحتها الكريهة.

- أعرف... أعتذر... وأحب أن أسمع من فمها: الله يتوب عليك أوليدي... نفس الدعاء أسمعه من أمي. سعيد بذلك...

سعادتك اليوم غيرها قبل أسبوعين، فيما يبدو لي. أدعوك أن تتحدث عن الأسرار. ولكن غيابك أزعجني.

- لا تنزعج فقد حققت كل مطامحي للأمد القريب. قلت لك مرة إني محظوظ. وكنت تقيس الحظ بما بين يدي من مال. المال ليس سر الحظ ولا السعادة، ولكنه باب -ضيقة- للسعادة، أحتقر الباب إذا كنت أدخل البيت من النافذة.

- تقريبا. وحتى لا أتركك في غمرة التيه أخبرك بأنني وجدت عملا مهما فيما أرجو... و... تزوجت.

- صفق محمود بكفيه، يكاد يستلقي على قفاه، حدق في وجهه طويلا، دون أن ينبس. وابتسم زيدان ابتسامته العريضة وهو يخاطب محمود:

- أعرف أني سأحتاج إلى مجهود إقناعك بصدق ما أنقل إليك من أخبار. تأكد يا محمود أني اشتغلت وتزوجت، مرة واحدة. سجل في مذكرتك اليوم والساعة، عدني. وستعلن النتيجة أنك أصبحت قاضيا. ستتنازل وتحضر ليلة عرسي. ولكني أؤكد لك أني لن أترافع أمامك. لقد أصبحت محاميا تحت التدريب. هذه الأولى (افتح أذنيك) تقدمت إلى أحد المحامين المشهورين في الدار البيضاء لأعمل مساعدا متدربا. نظر إلي نظرة استهانة. انطلقت في حديثي - تعرف لساني - محاولا أن أقنعه بكل ما أملك من علوم الكلية. دخلت من باب قانون المرافعات. شعر بأنه أمام رجل علم. المحامون الكبار (يحرثون على ظهور) خريجي الكلية. قال إنك ستشتغل متمرنا بدون أجر. نظرت إليه مستعطفا.

- ولكني لا أملك ما أنفق منه على نفسي.

- إذا سأمنحك حظا من القضايا التي تسكبها إذا تابعتها ورافعت فيها.

- ليكن حظا محترما. ستكون مسرورا ومرتاحا للعمل معي.

قال محمود "مهنئا":

أهنئك. العمل مع المحامين الكبار مدرسة. القضايا الكبرى والمجزية تقصدهم. ستكون إذن محاميا كبيرا.

استرحت إذن، عرفت ما كنت تريد أن تعرف عن غيبتي. ليس كذبة بيضاء ولا سوداء.

- حتى الآن أعتقد ذلك.

- يا عزيزي الطيب القلب، إنها صفراء فاقع لونها تسر المستمعين. المحامي كان في حاجة إلى محام في مثل مكانته يشتغل معه متدربا وهو بالإضافة إلى ذلك متكبر. كان ينظر إلى بعينين نصف مغمضتين. وصل. نسي المراحل التي مر منها، لم أتركه يشفي غليل تكبره واحتقاره... وقفت مسرعا وأنا أودعه دون أن أمد يدي "أروفوار" يا أستاذ.

حزن محمود لم يضحك. ولم يعبر عن حزنه، ولا تلفظ بكلمة أسف فأجابه زيدان:

- لا تخف على صاحبك، خرجت من عنده إلى المقهى، كنت في حاجة إلى قهوة مرة وفي قلبي وعد باسم. وفي الصحيفة التي وجدتها (مجانا) على طاولة المقهى قرأت خبرا عن شركة جديدة لبيع السيارات. استعجلت قهوتي وجدت مقر الشركة قريبا من مكتب المحامي. وكنت أمام مدير الشركة.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ليس متكبرا ولا يعتبر نفسه أستاذا. تحدثت إليه بالفرنسية. ما أشك في أنه ينتبه إلى أخطائي في استعمال الأفعال. أجابني بفرنسية يتبرأ منها فيكتورهيكو. قبل أن أعمل معه مؤقتا تحت التجربة. أشعر في وجهه بالسماحة سأبدأ العمل في أول الشهر.

- إذا لم تكن هذه القضية بيضاء أو صفراء فإني أهنئك.

- الذين يكذبون مرتين متتاليتين يفقد فيهم الأصدقاء الثقة. وأنا - تعرف أني لا أكذب إلا مازحا - لا أستغني عن ثقتك. ليس في الدنيا اثنان من محمود وإلا كانت تمشي على رأسها.

- شكرا أهنئك وأتمنى لك حظا سعيدا، وأنا متأكد من ذلك. فإقبال المواطنين على شراء السيارات أكثر من إقبالهم على شراء الخبز.

- ولكن ليس أقل من إقبالهم على الخصومات وزيارة دور القضاء. ستكون أكثر مني عناء، ولكن لا تكن أكثر مني تجميعا للأموال... الدرهم فيه ما يسعد ولكن فيه ما يشقي ويحرق... احذر... احذر المنصب الذي قيل فيه: قاض في الجنة وقاضيان في النار...

أنت تعرفني... سأكون قاضيا، لا قاضيان...

عاد زيدان إلى الصمت افتقد وجهه السمح ابتسامته الدائمة.

- مالك مغموما، كأنك تحمل الدنيا على كتفيك... ابتسم. اضحك.

- ابتسامتي هي رصيدي، وساعة تجدني لا أبتسم تقرأ في وجهي شيئا ما. ويبدو أنك لا تقرأ جيدا ما في الوجوه لأنها تحمل أحيانا أسرارا لا يقرأها إلا الأذكياء... حاشاك أن تكون غيرذكي.

- خطوط وجهك غير واضحة هذه المرة: متقاطعة متعاكسة.

- الأمر أبسط من ذلك. فكر معي: قبل التحاقي بكلية الحقوق، قبل إحرازي على الإجازة التي ستعلق مثيلتها داخل إطار مذهب، فوق سرير نومك، أو تضعها فوق مكتبك، قبل كل ذلك كان يمكنني أن أعمل بائع سيارات ولو مستعملة. المستهلكون أكثر من مستهلكي الخبز كما قلت، لم إذن إهدار الزمان؟ العبث... العبث... متى نتقيه وهو يعبث بنا...؟

- يا أخي... لا تستهن بمقامك أصبحت أستاذا منذ الآن تحمل اللقب. كل الناس سينادونك الأستاذ زيدان (ابتسامة ماكرة).

- أبيعك اللقب بثمن بخس... مشتري السيارة إذا عرف أني "أستاذ" سيقول في نفسه بائعو السيارات أصبحوا أساتذة. يحكى أن المواطنين في بعض البلاد العربية ينادون مصلح الأحذية "الأستاذ" لا يهمني هذا. يهمني أن أقترح على وزارة التعليم العالي أن تقفل أبواب كلية الحقوق تجنبا للعبث. فهذه الكليات تصدر للدولة بائعي السيارات وربما بائعي اللحوم والخضروات... أتقدر كم أنفقت علي الدولة لأتخرج بائع السيارات؟ حرام... أموال الشعب تصرف على بائعي السيارات والكركاع والشاي والسكر...

- زيدان رأسك أصبح في حاجة إلى عقل... (اتسمت لهجة محمود بطابع الجد) ومن المؤسف أنك لم تكتسبه في كلية الحقوق... عهدي بك " قراء" تقرأ كثيرا من كتب العلم والفلسفة (قاطعه زيدان هازئا: وروايات العشق والحب غير العذري...؟

ظننتك تدرك أن الثقافة قيمة متميزة. تمنحك شخصية مترفعة. والعمل شيء آخر. فيه جزء من ثقافتك. ولكن يمنحك لقمة الخبز على كل حال.

أيمكنك أن تخبرني بأمي مات جوعا. الثقافة في عصرنا هذا قيمة تؤهلك لتكون باحثا في مركز أبحاث علمية، في إدارة أعمال كبرى تنمي الملايير على الأقل في كرسي أستاذ (أشاف في لهجة ساخرة) أو على منصة القضاء "تحكي" ما قرره المشرعون.

ضاق صدر محمود فقال:

- لست أول مرة نختلف فيها ولكننا سنتفق...

- يوم تصبح أنت أيضا بائع عود الريح... (الدراجات الهوائية)

فجرت سخريته ضحكات محمود فصفق دون

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعور، وزيدان يشاركه ضحكته واقفا مودعا...

- اجلس. إلى أين؟ خالتك طبخت لنا اليوم الكسكس. وأنت مدعو عندها.

- لا اعتذر لي عندها أنا مضطر أن أغادر إلى الدارالبيضاء، لأبحث عن غرفة سكن وأنقل إليها الوالدة. ففي بداية الشهر سأبدأ ببيع أول سيارة... وفي الشهر بعده سأبيع ثاني سيارة... ولن يمر عام حتى أبيع اثنتي عشرة سيارة. مكسبها اثنا عشر ألف درهم في العام. سأكون غنيا محفوفا بالسعادة إذا كفتني لأداء ديون بائع الخبز...

ضحك محمود مرة أخرى وهو يقول: يا متشائم (هادئا) أنت رجل محظوظ. لأنك محفوف بالتشاؤم...

- تعال (يستبقيه) ماذا عن الزواج؟ كان يجب أن تحدثني عنه أولا قبل العمل.

- هل هناك زواج يسبق العمل. الموضوع لم ينضج بعد. ولو أنه ولد ناضجا. أول يوم في عطلتي سأزورك لأحدثك. دائما أنا أتحدث. أما أنت فليس لك ما تتحدث به إلا أنك تراجع الكتب لتنجح في مباراة القضاء. مبروك مقدما، فلن يجدوا قاضيا أحسن منك علما وعدلا وقلة رشوى... مع السلامة. وإلى اللقاء.

- أربعة أشهر يا محمود. زيدان لم يظهر له أثر. من واجبك أن تبحث عنه.

- لا تنزعجي يا أمي... لعل عمله قد استغرقه لا تخشي شيئا سيعود يوما.

حينما طرق الباب بحركته المعروفة، كانت أم محمود خلف الباب:

- من الطارق؟

- أنا زيدان يا خالتي، محمود موجود.

فتحت الباب بوجه بشوش ضاحك.

- زيدان يا بني انزعجنا - محمود وأنا انزعجنا لغيابك.

وانحنى على يدها يقبلها، كما يفعل مع والدته كل صباح، وهي تدعوه أن يشرب الشاي فاعتذر.

- ومحمود بخير. أين هو؟

- (بحسرة) محمود - يا بني سافر. ألا تعرف؟ في مكناس عينوه قاضيا في المحكمة الابتدائية... يتغيب أسبوعا يبيت عند خالته، أختي، يأتي يومي السبت والأحد... يبحث عن منزل للسكنى. لننتقل إلى مكناس...

لم تترك له فرصة السؤال فبادر:

- مبروك... سعيد جدا أن أراه قاضيا. مقامه أن يكون قاضي القضاة.

- ولكن يا بني: الغربة والوحشة. والعمل في مدينة بعيدة.

وضحك زيدان وهو يودعها:

- مكناس ليست بعيدة يا خالتي، وهي مدينة جميلة وأهلها متحضرون. نعم الاختيار. سأعود في يوم عطلة.

- محمود... يا محمود... لم يطرق الباب، وإنما نادى من خلفها كما يفعل عندما يكون على مزاج رائق. وهرع محمود إلى الباب يفتحه بشوق.

- ظننتك قد صرت إلى عفو الله. قال محمود ضاحكا وهو يعانق زيدان.

- لا... لم أنه أعمالي بعد... عفو الله جاء إلي...

ضحك محمود وهو يمسك بيده إلى الغرفة التي أصبحت مكتبا له بعد أن عين قاضيا.

علمت من خالتي أنك أصبحت قاضي القضاة (ابتسم محمود للقب الجديد) مبروك... آمل أن ترفق بالناس. السجون امتلأت. العفو عن ذوي السوابق هو الحل لمشكلة الاكتظاظ.

- أخبرني عن عملك... عن زواجك...

- أوضاعك ملخصة في كلمة: القاضي، وأضيف فضيلة القاضي المحترم. أوضاعي ملخصة في كلمتين: أبيع سيارتين في الشهر وأدبر حالي مع نصيبي في البيع... تزوجت... تزوجت... وطلقت وطلقت.

- زيدان... جننت؟ ماذا تعني...؟

- (ضاحكا في اغتباط) لا جنون ولا عقل.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأولى تعرفها تلك التي كانت تتمسح بأذيال هيفاء في الكلية. تتبعها كذيل لعلك لا تذكرها. أنت لا تذكر زملاءك. أما زميلاتك فكنت تغض الطرف خوفا من "العين تزني..." تريد أن تعرف أكثر؛ في غرفة الانتظار عند المحامي. كانت هناك تنتظر - كما أنتظر - أن يقول لنا: يفتح الله. ساعتان بدأ فيهما الحديث عن الكلية، انتهى بوعد الزواج. وكانت أنانية، سلطوية طماعة. لا حد لمطالبها... تحمل نفس شهادتي وهي مع ذلك أنثى. تلك هي الكارثة...

- يا بنت الناس فكري بعقل وتصرفي بمسؤولية...

- يبدو أنك لست الرجل الذي أفكر فيه.

وتركتها للرجل الذي تفكر فيه... والثانية عشت معها أسابيع في رعب من الحلال والحرام... كل ما يبدو لي منها هو ما يبدو للآخرين. تمتنع عني في عز شبقي... تخاف من الحرام. أبحث عن المستوى الفكري عن الشخصية القوية... عن المرأة...وكانت رغبتها هي الأخرى أن تعود إلى أمها...

- لعلك كنت تبحث عن ملك؟ لم تتزوج ملكا.

- الملائكة لا يتزوجون. وأخاف من الثالثة ولو كانت ملكا.

- أخطأت الطريق. هيفاء كانت أروع زوجة تسعدك.

- هيفاء (أغمض عينيه في خشوع). تهدج صوته حتى انطلق بعد لأي. سلام عليك يا هيفاء يا قصيدة العمر. أنت يا محمود لا تعرف مكانة هيفاء في قلبي وعقلي. لا أتزوج هيفاء (ضاحكا) ولو طلبت يدي... أحب أن تبقى الفتاة التي أسترني ولم تفك أسري. انشدها قصيدة في صباحي... قبل منامي. لا أحب أن تختلف صورتها عما رسمتها في قصائدي، وهي بين أحضاني (في أسى) أفقدتني الحياة الكثير. لا أحب أن تفقدني هيفاء...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com